

رسول الله ﷺ يذكر المسلمين بأهم أصول الإسلام في آخر حجة له

في السنة العاشرة من الهجرة خرج النبي ﷺ للحج ، وكان ذلك يوم السبت الخامس من ذى الحجة ، بعد أن ولى على المدينة أبا دجانة الأنصارى ، وكان معه جمع كبير قُدِّرَ بتسعين ألفاً ، وهو ما لم يعهد له مثيل في بلاد العرب قبل ذلك العهد . وفي اليوم الثامن شخّص النبي إلى مِنى فبات بها ، وفي اليوم التاسع منه قصد عرفة وهناك ألقى على الناس ، وهم يحيطون به ، خطبة جامعة ، ذكر فيها أصولاً عامة قام عليها الإسلام لتحفظ عنه في ذلك الجمع الحاشد ويعمل بها ، لتستقيم جماعتهم على أمتن القواعد ، فأليك ما قاله ﷺ :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . »
« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحكام على طاعته ، وامتنع بالذى هو خير .

« أما بعد ، أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم ، فإنني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت (١) ، اللهم فاشهد .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمن عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبداً به ربا عوى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية

(١) هل قد تأتى بمعنى قد فيكون المعنى : ألا قد بلغت .

موضوعة غير السّدانة والسّقاية . والعمد قَوْد ^(١) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

« أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم .

« أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلون عاما ويحرمونه عاما ، ليواطأوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يَدْخُلن أحدا تَكَرَّهُوهن بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتجهروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان ^(٢) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذنوهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

« أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لا مريء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد .

(١) السّدانة خدمة الكعبة والسّقاية تدبير الماء لينقى منه الحجاج ، والقود القصاص ، والقصاص هو أن يفعل بالجاني مثل ما فعل .

(٢) عوان أى أسيرات جمع عانية .

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« أيها الناس ، الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصيته في أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ^(١) من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ألقى النبي ﷺ هذه الخطبة والناس سكوت مصفون كأن على رؤوسهم الطير ، وقد اشتملت كما يرى القارئون على أصول أولية لم يفه بها خطيب في بلاد العرب ، وبعضها لم يدر في خلد أحد قبل الإسلام . فأما التي لم تكن تعرف في بلاد العرب ، وكان الناس جارين على خلافها ، فمنها تحريم أموالهم ودمائهم عليهم ، وقد كانوا قبل ذلك يعتمدون على الغارات لتحصيل معاشهم من طريق التناهب . وهذا الذي كان اضطربهم لبدعة النسيء ^(٢) استصعابا منهم لتمضية ثلاثة أشهر متوالية بدون غارات ، مما كان إذ ذاك لا يتفق وحالتهم المعيشية . فلما جاء الإسلام حرم عليهم ذلك ، ووجههم إلى الوجهات المشروعة لتحصيل العيش ، فكان منهم الجنود المدربون على القتال الذين احتاج إليهم الإسلام في الدفاع عن بيضته ، والجيوش الجرارة التي خاض المسلمون غمارها فيما كانت لا تزال تقضى بها طبيعة العمران في تلك القرون ، ففتحو ممالك كانوا لا يحلمون بوجودها ، وألقوا منها امبراطورية إسلامية كانت لا تغرب عنها الشمس ، اعتبرت أكبر امبراطورية تسنى

(١) الفراش الزوج ، لأن كل واحد من الزوجين يسمى فراشا للآخر . والحجر أي الحية والحرمات . والمعنى أن الولد لصاحب الفراش : السيد أو الزوج ، وللزاني الحية والحرمات .
 (٢) النسيء اسم بمعنى التأخير من نساء الشيء نساء بمعنى أخره . والمراد بالنسيء في الآية تأخيرهم حرمة الحرم لصفر ، ذلك أن عرب الجاهلية كانوا يكرهون أن تنوال عليهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها على إخوانهم ، لأن معاشهم كان قائما على الغارات . فكانوا يحلون الحرب في الحرم أحيانا ويحرمونها في صفر بدلا منه ، وهو تحايل بمقوت لا يرضى به ذو مسكة من عقل .

لأمة أن تؤسسها إلى اليوم ، إذ امتدت من شواطئ المحيط الاطلاطيقى بأسبانيا والبرتغال شرقا إلى بحر الصين غربا ، وتناولت معظم حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى قال مؤرخو الفرنجة إن المسلمين بلغوا في ثمانين سنة ما لم يبلغه الرومانيون في ثمانية قرون .

وبسبب جدوبة أرضهم ، وتحريم الإسلام عليهم إغارة بعضهم على بعض طلبا للنهب ، اضطروا للمهاجرة إلى كثير من البلدان التي افتتحوها وحكموها بالعدل الذى لم تحلم به الشعوب المقهورة قبلهم ، واختلطوا بأهلها ، ونشروا بينهم لغتهم بدون إجبار ، ولكن من طريق ميل الشعوب للغة الفاتحين ، حتى تغلبت على لغات تلك الشعوب وأصبحت عربية ، كما يشاهد ذلك بمصر وسورية وجميع سواحل أفريقيا الشمالية والسودان وغيرها .

ولم يكشف العرب بالنزوح إلى البلاد التي افتتحوها ، بل هاجروا طلبا للعيش إلى غيرها مما يعد السفر إليه مخاطرة بالنفس في ذلك العهد ، كسومطرة وجاوة وغيرها بالاقيانوسية . وهذا التوسع في المهاجرة الذى لم ير مثله لأمة أخرى ، كان سببا في عدم تلاشى الامبراطورية الإسلامية وبقائها إلى اليوم .

ومنها إعلان قطع كل صلة للعرب بعهد الجاهلية ، حتى ما كان يتعلق منها بالأمور المالية والجنائية والتشريعية ، فمن كان له ربا قرض عند مدين ، أو دم يطالب به خصما له ، أو كان له حق مكتسب في مكانه شرف ، فلا حق له من ذلك اليوم في المطالبة به ، لأن كل ذلك جاء وفقا لعقلية الجاهلية ، وطبقا لأصولها ، فلا يجوز أن يعتد به ، لابتثائه على ضلالات تقليدية ، وجهالات وراثية ، لا يصح أن يقام لها وزن في عهد الإسلام القائم على العدل المطلق ، والحق الطبيعي الذى لا يتغير . وإن أمة برمتها تقبل هذا الإجراء الضخم الذى لم يحدث له مثل في جميع عهود التاريخ ، لهى أمة كانت قد اقتنعت بأن ما انتهت إليه من التطور الجديد هو الحق الذى ليس وراءه مذهب ، وأن ما كانت عليه كان ضلالا محضا لا يصح أن يقام له وزن .

هذه أمور لا يصح أن يكون حظها من القارئ كحظ الحوادث العادية فحسب ،

فإنها تنطوى على تطورات بسيكولوجية تعتبر من أعظم المعجزات العلمية ؛ ذلك أن أمة كالأمة العربية كانت تعتد بفضائل أسلافها ، وتبالغ في حفظ اتصالها بهم وبمآثرهم ، إلى حدود التقديس ، تقبل أن تجعل بينها وبينهم حداً فاصلاً ، وأن تبدأ حياة جديدة لا ماضى لها . هذا التطور يجب أن ينظر إليه كنتيجة لثورة اعتقادية وصلت إلى أعماق نفسيها ، كتبت به صفحة جديدة لا في التطورات الدينية المفجائية فحسب ، ولكن في البسيكوجيا الاجتماعية أيضاً ، ولا نشك في أنها من أعجب صفحاتها لمجيئها على خلاف ما عهد من الأصول المقررة في ذلك العلم ، من وجوب التدرج إلى مثل هذه الغايات البعيدة في آمان طويلة .

ومنها الانقلاب الذريع الذى نوهت به هذه الخطبة فيما يخص بحالة المرأة في الإسلام . فإن تصريح النبى ﷺ بأن للنساء حقا على الرجال ، وبأن من ذلك أن يعاشرن بالمعروف ، يضاف هذا كله إلى ما سبق تقريره من حقوقهن في وراثة أزواجهن ، وفي الاستقلال بإدارة أموالهن ، وبوجوب تعلمهن ، وبإمكان أخذ العلم عنهن ، وقبول شهادتهن لإخ لإخ ، مما أدى بعلماء الدين إلى أن يستخرجوا منه إمكان إسناد مهمتى القضاء والإفتاء إليهن ، كل هذا يحسب من الأمور الجلل التى طرأت لا في الأمة الإسلامية وحدها ، ولكن في العالم الإنسانى أجمع ، لأن كل هذه الحقوق النسوية لم يكن يعلم بها أحد فضلا عن أن يطالب بها . وقد دل تاريخ العالم على أن المرأة إلى ذلك العهد كانت محرومة من جميع الحقوق ، إلا ما سمحت به الشريعة الرومانية ، وما سمحت به لا يعد إلى جانب ما منحه إياها من الحقوق شيئا يذكر . ناهيك أن الإسلام أباح لها أن تشتتر على زوجها شروطا تعويضية في العقد ، وأن يكون فصم عرى الزوجية بيدها تنفصل عن زوجها في أى وقت أرادت ، ولا يكون لذلك الزوج أدنى حق في منعها من ذلك . كل هذه التجديدات في عهد كالذى شرع فيه الإسلام تعتبر من الأمور التى يجب أن تستوقف النظر .

ومنها مبدأ المساواة بين جميع أفراد النوع البشرى بصرف النظر عن اللغة واللون والجنس ، وجعل مناط التفضيل بين الناس الصفات النفسية من تقوى الله

والعمل الصالح ، وهذا المبدأ لم ينس به متكلم قبل الإسلام قط ^(١) ، لأن الناس كانوا يعتقدون بأجناسهم إلى أقصى حد ، حتى كبار الفلاسفة منهم ، ألم يقل أفلاطون : « إني لأشكر الله على ثلاث : أن خلقتني إنسانا ولم يخلقني حيوانا ، وأن جعلني يونانيا ولم يجعلني من جنس آخر ، وأن أوجدني في عهد سقراط » . ولا يخفى على باحث مدقق أن هذا التعصب من أوهام الأجناس ، ولا يقوم على أصل طبيعي ، ولا على مبدأ من العدل المطلق . فمجىء الإسلام بنقضه يعتبر وضعاً لأساس ركين لأقوم أصل اجتماعي عرفه الناس منذ وجودهم إلى اليوم ، سيكون متى عم الأمم قاطبة مبدأ لإبطال التناحر ، وإقرار السلام بين جميع الأجناس البشرية ، ونشر عاطفة الأخوة الصحيحة بين آحادها كافة .

يقول معترض من المعاصرين : ليس بمجحود ما أتى به الإسلام من حقوق جديدة للمرأة لم تكن تحلم بها قبله ، ولكن وصفهن بأنهن عوان أى أسيرات عند الرجال ، لا يتفق والحماية العظيمة التي تقولون إنه أحاطهن بها ؛ والتصريح للرجال بمعضلهن أى بحبسهن والتضييق عليهن وضربهن ، يشجع كثيرا من الرجال على الغش من كرامتهن ، وتحقير شأنهن ، والتوسع في الترفع عليهن ، مما لا يتفق وما تواضع عليه الناس في المدنية الراهنة .

نقول إن كلام النبي ﷺ كان موجها للجماعة التي من حقها درء المفساد حفظا لها من التفكك والتلاشي ، وموضوعه المرأة الخارجة عن حدود الناموس الأدنى العام ، لا المرأة المحافظة على كرامتها وكرامة أسرته . وقد كان جزاء ما تصاب به المرأة الخليعة في ذلك العهد عند غير المسلمين أن تلقى في النار ، أو تعذب حتى تموت صبرا !

ووصفه ﷺ للنساء بأنهن أسيرات عند الرجال ، تقرير للواقع في ذلك العهد ، لالحالتهن الملازمة لهن ، تحت رعاية الشريعة الإسلامية ، التي خولتهن من الحقوق ما لا تزال نساء القرن العشرين محرومات منه . والواقع في ذلك العهد أن

(١) نيس ينس تكلم أكثر استعمال هذا الفعل في النفي ، تقول ما نيس بكلمة

المرأة العربية التي عاشت آمادا طويلة في ذل واستعباد ، حتى كان تورث بعد موت زوجها وتباع كما تباع الأنعام ، وليس لها أدنى حق حيال زوجها تطالبه به ، كانت لم تتأهل بعد لأن تطالب بحقوقها بنفسها في الإسلام ، فكلفت لا تزال أسيرة للتقاليد الجاهلية إلى أبعد حد ، ناهيك أن المرأة الشرقية حتى في هذا العصر الذي من مميزاته التمرد على النظم بحق وبغير حق ، لا تفكر في المطالبة بحقوقها ، وتصبر عمرها الطويل تحت سلطان معاملة قاسية لا تحاول أن تفتك منها ، فما ظنك بالمرأة العربية منذ نحو أربعة عشر قرنا ؟

لا جرم أن المرأة بهذا الاعتبار كانت تعتبر إذ ذاك أسيرة في بيت زوجها ، وأن خاتم المرسلين محمد ﷺ الحق في استعطاف زوجها عليها ، وتذكيره بحقوقها ، ما دامت لم تبلغ هي من الرشد إلى درجة المطالبة بحقوقها والدفاع عنها (*) .

تحقق الوحدة العربية باستسلام القبائل للدولة الإسلامية

بعد أن أتم النبي ﷺ فتح مكة وتدريجه قريشا الوثنية ، وبعد أن أطفأ أكبر ثورة قبلية في شخص بنى هوازن وما استصرت به من القبائل المشايعة لها ، عقب ذلك الفتح ، أدركت القبائل العربية المبعثرة هنا وهناك من جزيرة العرب أنه لا عصم لها من المفاجآت إلا بالاعتصام بالدولة الجديدة التي تأسست في بلادها . وقد كان الدرس الذي تلقته قريش وهوازن من تلك الدولة ، كافيا في تلقينها هذه الطريقة المثلى لحفظ وجودها بعيدا عن العطب ، فكثرت وفود القبائل على النبي ﷺ ودخولها في طاعته ، وخضوعها لما يفرضه عليها من الإتاوات لتدارك حاجات الدولة الأدبية والمادية ، وقد بلغ عندها أربعين وفدا . ونحن نورد أشهرها هنا استيفاء لأركان هذه السيرة :

١ - وفد نصارى نجران :

نجران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن تشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وصل وفدوا إلى مسجد المدينة بعد العصر وكان عددهم ستين رجلا ، فقاموا يصلون صلاتهم ، فمنعهم الناس ، فقال ﷺ : دعوهم يصلوا ، فاستقبلوا المشرق وصلوا ، وكان عليهم أردية من الحرير ، وفي أصابعهم خواتم من الذهب .

ثم عرضوا هدية أتوا بها للنبي ﷺ وإذا فيها أبسطة ذات تماثيل ، ومسوح (هي أكسية من شعر) . فقال رسول الله : أما هذه البسط فلا حاجة لي فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونها آخذها . فقالوا نعطيكها .

ثم عرض عليهم النبي ﷺ الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا ، وطلبوا دفع الجزية ، فقبل منهم النبي ذلك ، وكان مقدارها ألف حلة في صفر وألفا في رجب ، ومع كل حنة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا . فاقترحوا أن يرسل معهم وكيلًا عنه ، فأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصحبهم قائلا لهم : هذا أمين هذه

الأمة . فصار يطلق عليه هذا الوصف بين الصحابة .

٢ - وفد ضِمَام بن ثَعْلَبَة :

ووفد عليه ضمام بن ثعلبة فأناخ بعيره في المسجد ورسول الله جالس بين أصحابه . فنظر إلى الناس وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فدلوه على النبي ﷺ ، فدنا منه وقال له : إني سائلك فمشّد عليك فلا تجد علي (أى فلا تغضب مني) . فقال له رسول الله : سل ما بدا لك .

- فقال ضمام : يا محمد جاءنا رسولك فذكر أنك تزعم أن الله أرسلك . قال النبي : صدق - فقال ضمام : أنشدك رب رب من قبلك ورب من بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آبائنا يعبدونها ؟ قال النبي : اللهم نعم - قال ضمام : أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال النبي : اللهم نعم - قال ضمام : وأنشدك بالله الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرا ؟ قال النبي : اللهم نعم - قال ضمام : وأنشدك بالله الله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ قال النبي : اللهم نعم - قال ضمام : آمنت وصدقت ، ورجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأطاعوه وأسلموا .

٣ - وفد بني عبد القيس :

كان منازل هذه القبيلة بالبحرين ، وفد منها نفر منهم الجارود وكان على دين عيسى عليه السلام ، فلما أقبلوا سألمهم النبي ﷺ قائلا : من القوم ؟ فقالوا من ربيعة . فقال : مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا : مرنا يا رسول الله بأمر تأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة .

فقال النبي : آمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم .

فسألوه عن النبيذ ، فقالوا يا رسول الله ، إن أرضنا وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ .

قال النبي : فلا تشربوا في النقيير (وهو أصل النخلة ينقر ليتخمر فيه الشراب) .

فقال أحدهم واسمه الأشج : يا رسول الله إن أرضنا وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فرخص لنا في مثل هذه ، وأشار إلى يده . فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفيه وقال : يا أشج إن رخصت لك في مثل هذه (أى يدك) شربته في مثل هذه (أى ملء اليدين مجتمعين) حتى إذا ثمل أحدكم من شربه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

٤ - وفد بنى حنيفة :

هم بنو حنيفة بن لُجَيْم ، وفدوا على النبي ﷺ وكانوا سبعة عشر رجلاً فأسلموا ، وكان معهم رجل يدعى ميلمعة تركوه في رحالهم ليحفظها وكانوا يعظمونه ، وكان قد بلغ رسول الله أنه قال لو جعل لي محمد الأمر من بعده لا تَبِعْتُهُ ، فانطلق النبي إليه في نفر من أصحابه وفي يده جريدة ، حتى وقف أمامه وقال له : إن سألتني هذه الجريدة ما أعطيتكها .

٥ - وفد بنى طيء :

بنو طيء من أشهر قبائل العرب ، وفد رجال منهم على رسول الله ﷺ ومعهم سيدهم زيد الخيل ، وكان أعظم قومه جوداً ، وأحسنهم خلقاً ، فلما أقبل على النبي مسلماً قال له وهو لا يعرفه : الحمد لله الذي أتى بك من حزنك وسهلك ، وسهل قلبك للإيمان . ثم قبض على يده وسأله : من أنت ؟ فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبد الله ورسوله . فقال له النبي ﷺ : بل أنت زيد الخير . وعرض الإسلام على من معه فأسلموا . وفي زيد الخيل هذا قال النبي : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما قيل فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ ما قيل فيه كل ما فيه .

وأجاز النبي ﷺ كل رجل من هذا الوفد خمس أواق من الفضة ، وأجاز زيد الخيل اثنتي عشرة .

ولما توفي رسول الله وارتدت قبائل برمتها ومنها بنو حنيفة ، ثبت زيد الخيل على إيمانه .

٦ - وفد عدى بن حاتم الطائي :

كان عدى بن حاتم الطائي قد تنصر في الجاهلية ، فلما سمع بتدويع النبي ﷺ لقبائل العرب وخشي على نفسه ، خرج بأهله وماله إلى الشام مهاجرا خوفا من بطشه . وكان له أخت سبيت فيمن سبى من نساء العرب ، فلما عرف رسول الله أنها ابنة حاتم الطائي المشهور بالكرم والمآثر ، أكرمها وكساها وحملها على بعير ، وأعطائها نفقة للسفر إلى أخيها بالشام . فلما لحقت به نصحته أن يلحق بالنبي ﷺ قائلة له : إن كان محمد ملكا فأنت أنت لا يصيك منه أذى ، وإن كان نبيا فللمسابق إليه فضيلة . فخرج عدى قاصدا رسول الله ، فلما التقى به حدثت بينهما مباحثة دينية ، ثم قال له النبي : يا عدى لعل المانع لك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله وفقرهم ، فو الله ليوشكنّ المال أن يفيض حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولعلك إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فو الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية (وهي قرية قرب الكوفة) على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف شرا ؛ ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم . فأسلم عدى وحسن إسلامه .

٧ - وفد عروة المرادي :

وفد عروة على رسول الله ﷺ ، وكان قد أصيب قومه بنو مراد من بني همدان في وقعة بشر عظيم . فلما قابل النبي قال له : هل أساءك ما أصاب قومك ؟ قال يا رسول الله من ذا يصيب قومه ما أصاب قومي ولا يسوءه ؟ فقال له النبي : أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا . ثم ولاه على قومه وأرسل معه خالد ابن سعيد بن العاصي عاملا على جمع الزكاة .

٨ - وفد بني زيد :

وفدوا على النبي ﷺ ومعهم عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس العرب

المشهور بالشجاعة ، فأسلم .

٩ - وفد بنى كعدة :

هى من قبائل اليمن ، وفد منها ثمانون رجلا على رسول الله ﷺ وقيل ستون ، فهم الأشعث بن قيس . فلما دخلوا على النبي قالوا له : إنا خبأنا لك خبأ فما هو ؟ وكانوا قد خبأوا له عين جرادة فى إناء سمن . فقال لهم : إنما يفعل ذلك بالكاهن والكاهن والكهانة فى النار . ثم قال بعد كلام : إن الله قد أنزل على كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فقالوا أسمعنا منه ، فتلا عليهم : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالَّتِيَّاتِ ذِكْرًا ، إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (١) ، ثم سكت ودموعه تبرى على خيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى أمن مخافة من أرسلك ؟ قال النبي ﷺ : خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا : ﴿ وَلَقَدْ شَفَعْنَا لَنُدْخِلَنَّهُ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٢) الآية . ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال . فما بال هذا الحرير (وكان عليهم جباب مسجوفة بالحرير) ؟ فعند ذلك شقه القوم وألقوه .

١٠ - وفد بنى أزد شئوة :

هم من قبائل اليمن أقبلوا تحت قيادة رئيسهم صرد بن عبد الله الأزدى فأسلموا جميعا ، وأمر رئيسهم أن يغزو بهم من كان يليه من أهل الشرك .

١١ - وفد رسول ملوك حمير :

ذلك أن الحارث بن كلال والنعمان ومعاوية وهمدان كتبوا إلى النبي ﷺ بإسلامهم ، فرد عليهم بكتاب أوصاهم فيه برسلة الذين أرسلهم إليهم ، وهم معاذ ابن جبل ورجاله معه لتحصيل الزكاة والجزية ، ثم ذكر لهم أن الزكاة لا تحل لمحمد

(١) سورة الصافات ، الآيات (١ - ٥) .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية (٨٦) .

ولا لآل محمد ، وإنما هي للفقراء وابن السبيل .

١٢ - وفد رسول فروة بن عمرو الجذامي :

أوفد فروة بن عمرو من معان ، وكان عاملاً للرومان على ما حولها من أرض الشام ، رسولا إلى النبي ﷺ بهدية هي بغلة وحمار وثياب وقباء مرصع بالذهب ، فقبلها وأعطى الرسول اثني عشر أوقية من الفضة . فلما بلغ الرومان أمره قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه .

١٣ - وفد بنى الحارث بن كعب :

وفدوا على النبي ﷺ وأسلموا .

١٤ - وفد رفاعة بن زيد الخزاعي :

وفد رفاعة هذا على النبي ﷺ ، فأرسل معه كتابا إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام . فأجاب القوم بالطاعة وأسلموا .

١٥ - وفد بنى همدان باليمن :

تقدم منهم مالك بن نخط ومدح النبي ﷺ ، فأمره على من أسلم من قومه . وحدث أنه لما بلغه إسلامهم قبل ذلك خسر ساجدا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان » . وجاء في الأخبار أنه قال : نعم الحى همدان ، ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال ، وفيهم أوتاد الإسلام .

١٦ - وفد بنى تميم من اليمن :

وفد على النبي ﷺ منها ثلاثة عشر رجلا منهم معهم زكاة أموالهم . فقال لهم رسول الله : ردوها على فقرائكم . فقالوا ما قدمنا إلا بما فضل عن فقرائنا ، فدعا لهم وأجازهم .

١٧ - وفد بنى ثعلبة من اليمن :

وفدوا على النبي ﷺ وأسلموا وأبلغوه إسلام من خلفوه من قومهم ، فدعا لهم وأعطى كل رجل منهم خمس أوقيات من الفضة .

١٨ - وفد بنى سعد من اليمن :

قال النعمان : قدمت على رسول الله ﷺ في نفر من قومي وقد أوطأ البلاد ، والناس صنفان : داخل في الإسلام رغبة ، أو خائف من السيف ، فدخلنا المسجد وكان المسلمون يصلون على جنازة فانتظرنا حتى انتهوا . فأقبل علينا النبي وسألنا : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم . قال هم صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبأيعك . فقال أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . ثم أجازهم وانصرفوا .

١٩ - وفد بنى فزارة :

وفدوا على النبي ﷺ مع رئيسهم خارجة بن حصن ، فسألهم رسول الله عن حالهم ، فقال خارجة : يا رسول الله أسنت بلادنا ، وهلكت مواشينا ، فادع لنا ربك يغيثنا . فصعد المنبر ودعا لهم ، وانصرفوا مقرين بالإسلام .

٢٠ - وفد بنى أسد :

وفدوا على رسول الله وفهم ضرار بن الأزور فأسلموا ، وسألوهم عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة (وهى زجر الطير والتفاؤل بطيرانها يمينا أو يسارا) ، والكهانة وضرب الحصباء ، فهاهم عن ذلك .

٢١ - وفد بنى أسد :

وفدوا على النبي وأسلموا ، وقالوا : يا رسول الله لم ترسل إلينا داعيا ولم نقاتلك كما فعل العرب ، فأنزل الله عليه قوله : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) .

٢٢ - وفد بنى عذرة :

هم من اليمن ، وفد منهم اثنا عشر رجلا على النبي ﷺ وحيوه بتحية الجاهلية

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٧) .

وهي : عم صباحا . فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا . ثم قال : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، فالإثم تدعو ؟ فقال لهم رسول الله : أدعوا إلى عبادة الله وحده ، وإلى أفي رسوله إلى الناس كافة . فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال النبي : الصلوات ، وسرد عليهم بقية الفرائض . فأسلموا . فقالوا : يا رسول الله فينا امرأة كاهنة أفسأها عن أمورنا ؟ فقال لهم : لا تسألوها عن شيء .

٢٣ - وفد بني بلي :

هم حى من قضاة باليمن ، وفد جمع منهم على رسول الله ﷺ فأسلموا . وقال له شيخهم أبو الضبيب : يا رسول الله إن لى رغبة فى إضافة الناس فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال ﷺ : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يا رسول الله وما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام . قال فما بعد ذلك ؟ قال فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيخرجك . قال يا رسول الله والضالة من الغنم أجدها فى القلاة ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه .

٢٤ - وفد بنى مرة :

وفد عليه منهم ثلاثة عشر رجلا مقدمين الطاعة ، فلبثوا أياما ثم ودعوه للانصراف ، فأمر لكل منهم بعشر أواق من الفضة ، ولرئيسهم بائنتى عشرة أوقية .

٢٥ - وفد بنى خولان :

هى قبيلة يمنية ، وفد منها عشرة رجال مصدقين برسالة النبى ﷺ ، وموفدين من قومهم . فعلمهم رسول الله ﷺ الفرائض وأمرهم بالوفاء بالعهد وحمس الجوار وأن لا يظلموا أحدا . ثم أجازهم وانصرفوا .

٢٦ - وفد بنى محارب :

كان هؤلاء القوم أشد الناس على النبى ﷺ ، فلما مثلوا بين يديه نظر إلى رجل منهم وقال له : قد رأيتك . فقال الرجل : نعم ، وأنت فى سوق عكاظ تعرض

الإسلام على الناس ، فكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، فأحمد الله الآن على أن جاء بنى حتى صدقتك . ثم قال يا رسول الله استغفر لى مراجعتى إياك . فقال النبي ﷺ : إن الإسلام يجب ما قبله من الكفر (أى يزيله) ، ومسح وجهه ، واسمه خزيمه بن سواد . ثم أجاز الوفد وانصرفوا .

٢٧ - وفد صداء :

هم حى من عرب اليمن ، وفد على النبي ﷺ منهم رجل ليكلمه فى رد بعث عسكرى كان أعدده لغزوهم ، وتعهد بأن قومه على رأيه فى الدخول فى الإسلام ، فرد النبي ﷺ جنوده . ووصل من صداء عشرة رجال فآمنوا ورجعوا إلى قومهم ففشا الإسلام فيهم .

٢٨ - وفد غسان :

وفد على النبي ﷺ من بنى غسان ثلاثة رجال ، فآمنوا شاكين فى إسلام قومهم ، فصدق ظنهم فكنتموا إسلامهم .

٢٩ - وفد بنى سلامان :

وفد منهم على النبي ﷺ سبعة رجال فأسلموا وضمنوا إسلام من وراءهم ، فقبل منهم وأجازهم .

٣٠ - وفد بنى عبي :

وفد عليه منهم ثلاثة يسألونه أصحح ما قاله لهم معلومهم : لا إسلام لمن لا هجرة له ، وإن لنا أموالا ومواشى ، فإن صح هذا بعناها وهاجرنا ؟ فنفى رسول الله هذا القول .

٣١ - وفد بنى مزينة :

وفد منهم على النبي ﷺ أربعمائة رجل فآمنوا به ، ولما أرادوا الانصراف طلبوا زاداً يكفيهم الحاجة فى الطريق ، فأمر عمر فزودهم تمرا .

٣٢ - وفد بنى أشعر بن ود :

قدم أبو موسى الأشعرى فى رجال من قومه فلقوا النبي ﷺ فأسلموا ، فقال

رسول الله : الأشعريون كصرة فيها مسك . وروى عنه أنه قال : جاء أهل اليمن وهم أرق أفدة ، وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية .

٣٣ - وفد بنى دوس :

بنو دوس ينتهى نسبهم إلى بنى الأزد وهم من اليمن ، أول من قدم منهم الطفيل ابن عمرو الدوسى قبل الهجرة فعرض النبى ﷺ الإسلام عليه فأسلم . قال الطفيل فقلت يا رسول الله إلى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم فعارض عليهم الإسلام . فلما ذهبت إليهم اتبعنى بعضهم وأبى أكثرهم ، فعدت إلى النبى فشكوت إليه أمرهم . فقال : اللهم أهد دوسا وائت بهم ، وأمرنى أن أرجع إليهم وأن أرفق بهم ، فرجعت إليهم أدعوهم حتى هاجر النبى فعدت إليه بأربعمائة منهم ، ولم أزل مع النبى حتى فتح مكة ، فطابت إليه أن يرسلنى إلى صنم دوس لأحرقه فبعثنى . ثم لازمت النبى ﷺ حتى مات .

٣٢ - وفد بهراء :

هى قبيلة من قضاة باليمن ، وفد منها ثلاثة عشر رجلا أسلموا وعادوا إلى بلادهم .

٣٣ - وفد بنى غامد :

هى قبيلة باليمن أيضا وفد منهم عشرة فأسلموا ، ثم أجازهم وانصرفوا .

٣٤ - وفد بنى الأزد :

هم سبعة رجال من اليمن أسلموا وعادوا إلى بلادهم يدعون قومهم .

٣٥ - وفد بنى المتفق :

قدم على رسول الله جماعة منهم فأسلموا وعادوا لهداية قومهم .

٣٦ - وفد النخع :

وفد منهم مائتا رجل مقرين بالإسلام ، وهم آخر من وفد على النبى ﷺ .

نقول : المتأمل في توارد القبائل من كل صوب على جماعة المسلمين وإعلان انضمامهم إليهم ، يشهد منظرا رائعا من مناظر التوحد الاجتماعي بسرعة لم يعهد لها شبيه في تاريخ الجماعات البشرية . لأن أدوار التوحد والاندماج الطبيعية لا تحدث إلا وبين الدور والدور الذي يليه فترة طويلة تتخللها حوادث موجبة للتوحد ؛ ولكن الأمر الذي نحن بصدهه يجرى على غير السنة الطبيعية ، وبسرعة تكاد لا تصدق . فإن قال قائل : إن الذي دعا إلى هذه السرعة خشية القبائل من بطش المسلمين بهم ، قلنا إن صح هذا على القبائل المجاورة لمكة والمدينة ، فلا يصح على القبائل التي على مسافات شاسعة منهما ، كالتى تسكن اليمن والبحرين وغيرها .

والذى يزيد هنا الأمر غرابة أن المسلمين لم يصدر منهم عسف بالذين لم يأتوهم طائعين من تلقاء أنفسهم يحملهم على المبادرة بالانضمام إليهم ، فلا بد من أن يكون لهذه الظاهرة الاجتماعية باعث نفساني في تلك القبائل أشعرها بانقضاء عهد التفرق ، وبأن حياة جديدة قد آذنت بالحدوث لتقود مجموعها إلى وجهة واحدة على غرار سائر الأمم ، مما يستتبع عوامله في حالة هذه القبائل حتى بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى (*) .

★ ★ ★

مرض رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

في أوائل صفر من السنة الحادية عشرة اعترت رسول الله ﷺ وغكة وكان في بيت زوجته ميمونة ، وبقي مريضاً ثلاثة عشر يوماً لم ييطل عادته في التنقل إلى بيوت زوجاته ، ولكن لما اشتدت عليه الحمى استأذن منهن أن يمرض في بيت عائشة ، فأذن له . ولما تفاقمت درجة حرارته الجثائية أمر أن يصب على جسده الماء لتلطيفاً لشدتها ، فوضع في مخضب وصب عليه الماء صبا . وكان أبو بكر يصلي بالناس نيابة عنه بأمر منه . ولما استشرى المرض عليه اجتمع الأنصار بالمسجد ، ودخل عليه عمه العباس وأخبره بفاقهم عليه . فخرج عليه الصلاة والسلام متوكفاً على عتي بن أبي طالب معصوب الرأس ، وسار العباس أمامهما وتقدم النبي بخط برجليه ضعفاً حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي ، وأنتم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصِّبْرِ ﴾ ^(١) ؛ وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يملككم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله عليه ، ومن خادع الله خدعه ، ﴿ قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(٢) ؛ وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشارفوكم في الثمار ، ألم يوسعوا لكم في الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي ليحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإني فرط لكم ،

(١) سورة العصر .

(٢) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

وأنتم للاحقون بي ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يردّه على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي .

وبينا المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول وراء أبي بكر رضي الله عنه ، إذا برسول الله ﷺ قد كشف سجف حجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم صفوف يصلون فتبسم . فلما رآه أبو بكر ظن أنه يريد أن يؤم المسلمين فرجع القهقري إلى الصف الأول ، وكاد المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى لحقت روحه الطيبة الزكية بعالمها مع الرفيق الأعلى . وكان ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة (٨ من يونيو سنة ٦٣٢) ، وعمره ثلاث وستون سنة قمرية وثلاثة أيام ، وإحدى وستون سنة شمسية وأربعة وثمانون يوماً .

وكان أبو بكر في تلك الساعة غائياً ، فلما رجع وأخبر بما حدث كشف عن وجه رسول الله وجثا على ركبتيه يقبله وهو يقول : « يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين » .

ثم خرج إلى الناس وهم في حال مقيم مقعد ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الزمر ، الآية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

ومكث رسول الله ﷺ في بيته يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء ، حتى أتم المسلمون تعيين خليفة له ، ثم غسله على بن أبي طالب وساعده في ذلك عمه العباس وابناه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله . وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة .

ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره في بيته ، ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين ، يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد في حجرة عائشة حيث توفي ، وأنزله القبر على والعباس وولده الفضل وقثم ، ورش قبره بلال بالماء . ورفع قبره عن الأرض شبراً .

شمائله صلى الله عليه وسلم :

كان النبي ﷺ أجمل الناس وجهاً ، نير اللون ، شديد سواد الحذقة مع سعة فيها ، واسع العينين في حسن ، في بياضها قليل حمرة ، كثير شعر الأجناف ، مشرق الوجه ، دقيق الحاجبين في طول ، مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها ، مفرج بين الثنايا والرباعيات من الأسنان ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن ، عظيم الصدر والمنكبين ، ضخم العظام ، ضخم العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق شعر الصدر والبطن ، ربعة القد ، ليس بالطويل المفرط الطول ، ولا بالقصير المتناهي في القصير ، رَجُل الشعر ، إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ، وإذا تكلم رأى كالنور يخرج من بين ثناياه ، أحسن الناس عنقاً ، ليس بكثير اللحم ، ولا صغير الذقن ، متماسك البدن .

أما ما كان عليه ﷺ من نظافة الجسم ، وطيب العرف ، والتزهر عن الأقدار ، فمما لم يجاره في ذلك كله أحد .

أما كبر عقله ، وذكاء قلبه ، وقوة مشاعره ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فقد كان في ذلك كله بالمكان الأرفع .

أما كلامه وبيانه ، فكان بحيث لا يضارعه إنسان غيره ، أوتي جوامع الكلم ،

وقد ملأت أحاديثه الأسفار ، وأكثر العلماء من جمعها وشرحها وبيان أسرار البلاغة فيها .

وأما أخلاقه وآدابه فنأهيك أن الله قال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾^(١) ، وقد دل تاريخه كله على ذلك ، فكان أوسع الناس صدرًا ، وأرحمهم نفساً ، وأعفهم لساناً ، وأرعاهم للصحة ، وقد دوت عنه في ذلك أسفار كثيرة .

أما جوده وشجاعته وحيأؤه وحسن معاشرته ، وقوة احتماله وشفقته ورحمته وتواضعه وعدله ووقاره وزهده وتقواه ، فقد كان من كل ذلك مضرب الأمثال ، وهذا كله من أخص مميزات النبوة في رأينا . فإن الناس العاديين قل من يبلغ المثل الأعلى منهم في خصتين أو ثلاث من هذه الخصال ، فبلوغ هذه الدرجة السامية في جميعها ، مما لم يشاهد في واحد من جميع أفراد النوع البشرى في جميع أديار التاريخ . وتوافرها في محمد ﷺ قد دل عليه التواتر فلا يمكن التشكك فيه ، وهذا وحده دليل قاطع على صلته الوثيقة بالعالم العلوى بحيث لم تتمكن القوى البشرية فيه أن تغطي عليه في ناحية من نواحيه الأدبية ؛ وهو مثال رائع لمن يعنى بأمر التربية النفسية ، ويعرف مبلغ قصور البشرية عن قبول الانقياد للناموس الأدى انقياداً مطلقاً ، حتى مع إمامها بمضار الجنوح إلى ما يخالفه . وقد أجهد المربون والمصلحون أنفسهم في الوصول إلى أسلوب يحصل لهم أقصى ما يمكن من تقويم الشخصية الإنسانية ، فعجزوا عن ذلك ، ونسبوا خيبتهم في كثير مما يحاولونه إلى الحالات الجسدية ، والأمزجة الفطرية ، والعيوب الجبلية الموروثة ، وأجمعوا على أن بلوغ الإنسانية درجة الكمال - إن كان كتب لها أن تحصله - فلن يكون ذلك ثمرة العلم ، لأن العلم قد قام بالواجب عليه ، ولكن ثمرة التطورات المتعاقبة ، وهى تتطلب الآماد الطويلة ، والأحقاب المتوالية . وقد تحدث قهقرى مفاجئة بسبب من الأسباب ، فتقف سنة التطور آماداً أخرى .

ومن المربين من قالوا إن نيل الإنسان للكمال الأدى غير متيسر في هذا العالم ، لشدة غلبة الحاجات الجسدية ، ومقتضيات الجبلية البهيمية التى لا تزال متغلبة على

أهواء الإنسان ، وبحسب المصلحين أن يستطيعوا التغلب على ما يمكن التغلب عليه بالاستعانة بالمبدأ النفعي . أما طلب الكمال لذاته ، فعندهم أنه سيقى من حظ الأفذاذ الذين يختارهم موجد الكون ليكونوا مثلاً علياً لسواهم من بقية الناس .

إن من يتأمل في أقوال محمد ﷺ وهو يجود بنفسه - وهذه حالة يُفَضَى فيها بين الإنسان وأهول ساعة قُدرت له في حياته - يتحقق أنها صادرة عن قلب نبي ، لا عن قلب رجل عادي . فإن في تلك الساعة التي يرى الإنسان نفسه على وشك ترك أهله وذويه ، وكل ما كان بملأ صدره ، ويستوعب فكره من لذاته وعاداته ، يشغله من أمر نفسه شاغل هائل ؛ فإن فكر في شيء يخرج عن دائرة خصوصياته ، فلا يمكن أن يكون ذلك الشيء مما كان يخادع فيه الناس ليتسلط على عقولهم ، ويسخرهم لسلطانه ، بل شهود أن بعض الذين كانوا من هذا القبيل ، اعترفوا في تلك الساعة الرهيبة بجريمتهم ، وتبرأوا من ضلالتهم . والذي رآه الناس من محمد خلاف ما عهده الناس في أولئك . فإنه لما تحقق أنه لا محالة ميت ، قال للذين احتفوا به من صحبه : « أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ » .

ثم أوصاهم بالحق والصبر وعدم الفساد في الأرض ، وبالتحاب والتواصل ، تالياً عليهم قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ^(٢) . إن رجلاً يذكر الحق والصبر وهو يرى الموت بعينه ، ويذكر الجماعة ، وينهى عن الفساد في الأرض ، هو رجل خلُق روحاً وجسداً لأداء مهمة عالية قد استوعبت شعوره كله ، ولم تزيله حتى في تلك الآونة التي يذهل الإنسان فيها عن نفسه وبنيه وكل ما يملك ^(*) .

(١) سورة محمد ، الآية (٢٢) .

(٢) سورة العصر .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثاني ، صفر سنة ١٣٦٣ هـ .